

حين تصير الأخوة شعراً ويهان المستضعفون!

يبينما يؤكد رئيس مصر السيسي، في كلمته خلال احتفالات عيد الشرطة، في ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٢٦ م أن مصر ستظل ملاداً آمناً لملائين الوافدين من دول المنطقة، ويشدد على رفض تحويل ملف الهجرة غير النظامية إلى ورقة للمساومة السياسية أو الابتزاز المادي، تعيش شوارع القاهرة والإسكندرية واقعاً آخر، يرويه اللاجعون السودانيون بوجع لا تخطئه العين.

السيسي أوضح أن مصر تلعب دور حائط الصد أمام تدفقات الهجرة نحو أوروبا، انطلاقاً من اعتبارات إنسانية وأخلاقية، مؤكداً أن استضافة الملائين تأتي في إطار المسؤولية تجاه الأشقاء، بعيداً عن منطق المقاضة والمصالح. لكن السؤال الذي يفرض نفسه بقوة هو أين تذهب هذه الاعتبارات الإنسانية حين يُساق اللاجئ إلى الحبس؟ وأين تخفي الأخلاق حين يتحول القانون إلى أداة ضغط وجباية؟!

على الأرض، تشن الأجهزة الأمنية حملات اعتقال وتفتيش واسعة النطاق ضد اللاجعين السودانيين، طالت أحياء كاملة في القاهرة والإسكندرية، دون تمييز حقيقي بين من يملك إقامة أو بطاقة مفوضية ومن لا يملك. اللاجئون يحملون أوراقاً رسمية يُحتجزون أياماً، ثم لا يُفرج عنهم إلا بعد دفع غرامات مالية تتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف جنيه مصري. أما من لا يملك إقامة، ف المصيره الترحيل القسري، حتى وإن كان الهروب من الحرب هو جريمة الوحيدة!

هنا يصبح السؤال أخلاقياً قبل أن يكون قانونياً: هل هذه حماية أم ابتزاز؟ وهل الملاد الآمن يدار من خلف أبواب الحجز؟ إن السوداني ليس غريباً عن مصر، ولا المصري غريباً عن السودان، والتاريخ يشهد أن مصر والسودان كانتا بلدان متحدة يجمعهما الإسلام والمصير المشترك. لم يكن السوداني يوماً وافداً بالمعنى البارد للكلمة، بل شريك تاريخي أصيل، وأخ كريم تربى عليه أواصر العقيدة الإسلامية، فكيف تختزل هذه الأخوة اليوم في حملات تفتيش، وإذلال، وترحيل؟!

من زاوية الإسلام، فإن ما يجري اليوم لا يستقيم شرعاً، فالنبي ﷺ قال: «اْنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًاً أَوْ مَظْلُومًاً» فلما سُئل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: «تَنْعِهُ عَنْ ظُلْمِهِ». والنصرة هنا لا تعني التواطؤ مع الظلم، بل رفع المظلمة، ورد الحق، وكف الأذى. فإن كان هناك تجاوز أو مخالفة، فالمحاسبة تكون بعد ورحمة، لا بإهانة جماعية، ولا بتحويل اللاجيء إلى مصدر دخل!

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِحْوَةٌ﴾، فأين هذه الأخوة حين يترك المستضعف بين خيارات: إما السجن أو الدفع والترحيل؟! خلاصة القول إن التصريحات وحدها لا تصنع واقعاً، والإنسان لا يقاس بما يقوله، بل بما يفعله. وإن كانت مصر ترفض الابتزاز سياسياً، فالأخوي أن ترفضه ميدانياً، وألا يُمارس على أضعف الفئات. إن التاريخ لا ينسى، ودعوة المظلوم لا تُرد.

إن حدود سايكوس بيكتو جعلت هذه الشعوب تعيش غربة داخل بلادها، ولن تعود أواصر الأخوة الكاملة إلا بعد إزالة هذه الحدود المصطنعة التي تحرسها التصريحات المغلقة، وتتوحد مصر والسودان في ظل دولة إسلامية قوية؛ الخلافة الراشدة على منهاج النبوة تطبق الإسلام وتتملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

حاتم العطار - ولاية مصر